رسالة لندن :

ماذا بعد البنيوية ؟

عبد النبي اصطيف

يشير بتركوس في مراجعته لكتاب «**البنيوية مدخل**» (١) (من تحرير وتقديم د. ديفيد روبي ، مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٧٣) والتي ظهرت في مجلة الأدب المقارن في عدد الخريف من عام ١٩٧٧ ، الى أن للتأخير فضائله ، لأن الكتاب الذي بين يديه يبدو اليوم ـ وعلى وجه الاجمال ـ أكثر أهمية منه عندما ظهر عام ١٩٧٣ ، « ففي خلال هذا الوقت، انحسرت موجة البنيوية، وثمة مايشبه الاجماع الان **الى أنه اذا ما كان هناك «بنيوية» فقد انتهت ، انها بالنسبة الى النقد المعاصر أشبه ما تكون باللانسونية المزدراة »(٢) .**

ورغم أن دارس النقد المعاصر يقرأ ملاحظات كهذه في مختلف الكتب والمجلات المتخصصة ، وخاصة من قبل بعض الدارسين ، والنقاد الذين لم يروا في البنيوية غير تقليعة فرنسية لا تقوى على مجابهة تحدي الزمن ، تقليعة يحلو للمرء أن يصفها بأنها «لم تصمم لتناسب أو لتدوم » ، فانه يظل أميل الى الاعتقاد بأنها ما زالت تمارس تأثيرا لا بأس به في الأوساط النقدية . وحتى مايسمى اليوم بالنقد ما بعد البنيوي Post-Structuralist Criticism يتخذها أساساً له ، سواء أفترض في نفسه تطويراً لها أم ردة فعل معاد ومناهض .

ان نهاية السبعينات التي بشرت بانحسار موجة البنيوية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الى حد ما ، قد أرهصت بولادة ما بعدها . وهكذا ومن خلال المزاوجة الواعية بين النقد الأنكلو ـ أمريكي الجديد ،والنقد الأسطوري اللذين سادا الساحة الأدبية الأمريكية لعدة عقود من جهة ، وبين الفكر الأوربي (والفرنسي بشكل خاص) من جهة أخرى، ولد نقد جديد جديد «New» New Criticism نقد ربما كان أهم ما يميزه هو أنه لا يعتمد أساساً على النصوص الأدبية ، بل هو يستنكر أن يكون تابعا لها . وينظر الى نفسه على **أنه فعالية فكرية خلاقة تنهض للمقارنة مع**

الأدب،كنشاط ابداعي مكافيء للأدب في القيمة والمستوى ٠

وهو غالباً ما ينحو **منحى اشكاليا ويفضل أن يتعامل مع النصوص النقدية ، وأن يناقشها ويعلق عليها أكثر من التعامل مع النصوص الأدبية ٠** وربما كانت شهادة البروفيسور ادوارد سعيد أحد النقادالطليعيين في أمريكا في مقدمته للكتاب الجديد الذي حرره تحت عنوان « الأدب والمجتمع » Literature and Society والذي نشرته مطبعة جامعة جون هوبكنز مؤخراً ، ذات مغزى ، يقول البروفيسور سعيد والذي يدرّس نظرية النقد الحديث وفلسفته في جامعة كولومبيا :

« ان أي امرىء حضر (جلسات) في « المعهد الانكليزي » English Institute خلال العقد الماضي ، سيوافق على أن تحولا فكرياً هاما قد حدث خلال تلك الفترة ٠٠٠وأبسط طريقة لوصف هذا التغير هو القول بأن أناساً كثيرين أصبحوا مهتمين بالنقد ليس كنوع من الأدب ، كتعليق أو شرح مميز لنص أولي ، **ولكن كنشاط يمتح من معارف كاللغويات ، والتحليل النفسي،والأنتروبولوجيا ،والفلسفة،** جعل معظمه مختصا جدا ، **نمطا نظريامتحيزا من القول ٠**

وكواحدة من النتائج فقد تم التخلي عن الاعتماد المقبول على العمل الأدبي على أنه متقدم ليس من الناحية الزمنية فقط بل في القيمة أيضاً ٠ ان الناقد / الناقدة الآنيبدو/ تبدو أنه/ها يستمد كثيرا من رؤاه/ها من ناقد آخر ، وينظر الى النقد الآخر وليس الى الشعر من أجل أفضل أفكاره/ها ٠ لقد كان هذا الوضع غالباً بالتأكيد منذ كو لردج ولكن النقد نادرا ما بدا مكتفيا بذاته الى هذه الدرجة »(٣) (ادوارد سعيد، **الأدب والمجتمع،** مطبعة جامعة جون هوبكنز ، ١٩٨٠ ،ص ٧)

وبالطبع فان أسباباً عديدة تقف وراء هذا التحول ٠ ولكن **تطعيم النقد الأمريكي بالنقد الأوروبي بشكل عام والفرنسي بشكل خاص ربما كان من أهمها ٠**

لقد شهدت نهاية السبعينات وبداية الثمانينات ولادة اتجاهات جديدة كالتفكيكية Deconstructionism والسيميائيات Semiotics وقد ظهرت مؤخراً عدة كتب تعلن عن بداية مرحلة جديدة في النقد المعاصر ، ومما يلفت النظر في أغلبها أنها تكاد تكون بيانات نقدية تمهد لسيادة الاتجاه الذي تدعو اليه بقوة واندفاع وحماس وعنف أحياناً ٠

وكتاب « **استراتيجيات نصية : منظورات فيمابعدالنقدالبنيوي**»: **Textual Strategies : Perspectives in Post-Structuralist Criticism** هو أحد هذه البيانات الهامة والتي أود أن أتوقف عندها وقفة سريعة غايتها لفت انتباه القارىء الى بعض مؤشرات التطور في النقد العالمي المعاصر ٠

لقد تعاون على اخراج الكتاب مجموعة بارزة من النقاد الأمريكيين الطليعيين والأوربيين ، وحرره وأعده وجمع مقالاته وترجم بعضها عن الفرنسية وقدم لهاجوزي،

ف ، هراري Josué V. Harari أستاذ اللغات الأوربية المساعد في جامعة جون هوبكنز في الولايات المتحدة الأمريكية · والكتاب هو بالفعل من أكثر البيانات النقدية التي صدرت في السنوات الأخيرة أهمية ، لجملة من الأسباب أرجو أن تتوضح فيما يلي من سطور ·

وربما كان أهم ما يجمع هؤلاء النفر من النقاد ، اطلاعهم المتمكن على النقد الأوربي بشكل خاص والفكر والفلسفة الأوربيين بشكل عام ، فأغلبهم يمارس التدريس في أقسام اللغات الأوربية أو أقسام الأدب المقارن ، بل ان بعضهم من أصل غير أمريكي ، ومعنى هذا أنه يكتب ويقرأ بلغة أخرى ـ وربما أكثر ـ غير الانكليزية التي ربما لم تكن لغته الأم · ولا شك أن الرغبة في ايضاح الاتجاهات التي يمثلونها والتي أتيح لهم تطويرها من خلال عملية المزاوجة بين النقد الأمريكي والفكر الأوربي والتي أشير اليها سابقاً تشكل هدفا آخر يجمعهم ·

تشمل موضوعات الكتاب الذي بين أيدينا، والذي يضم خمس عشرة مقالة ومدخلا مطولا، السيمائيات والأدب والأنتروبولوجيا والأدب ، والعملية الايديولوجية التي تشكل المفاهيم النقدية ، وفن الشعر الأمريكي الحديث ودراسة النماذج الجبرية كعوامل معرفية ، وأنماط اللغة الشعرية وسبل انتاجها · وهي في مجملها موضوعات اشكالية ستثير دون شك الكثير من النقاشات والمعارك النقدية ·

ولعله تحسن الاشارة الى أن هذه المقالات تناقش مجموعة أعمال هامة لفرويد ، وباسكال، وشكسبير ولويس كارول ، وجوزيف كونراد، وعزرا باوند ، وفلوبير ، ومارسيل بروست ، وبول فاليري · وهي تحاول من خلال من خلال هذه المناقشة أن تستكشف الطرق التي يتحدى فيها النقد الطليعي الجديد وبشكل علني أولية الأدب أو أسبقيته ·

والحقيقة أن الكتاب لم يقصد به القارىء المختص أو مريد النقد فقط ، ولا أساتذة الأدب والنقد فحسب ، بل انه يتوجه كذلك الى الطلبة والمهتمين بالأدب والنقد بشكل عام · وقد حفل بجملة من الأمور المساعدة التي تجعل **الاطلاع** عليه ومراجعته على درجة كبيرة من الفائدة · وربما كان المدخل المطول الذي قدم به جوزي هراري للكتاب والذي يقع فيما يقرب من خمس وخمسين صفحة (ص١٧ـ٧٢) أوضح مؤشر على هذه الفائدة · فهو يتضمن محاولة طموحه وغنية بالمعلومات لوضع هذه الاتجاهات النقدية في سياقها العام من تطور الحركة النقدية في أمريكا وأوربا · كما يشمل فيما يشمل مناقشة نقدية لكل مقالة من مقالات الكتاب ، ولصلاتها فيما بينها وبالكتاب كشكل أيضاً · اضافة الى دراسة كاشفة للنظريات التي يستقي كل ناقد محاجاته منها وللاستراتيجيات المستخدمة في كل منها على حدة ·

أما مقالات الكتاب الخمس عشرة فهي لرولان بارت « من العمل الى النص » وجاك ديريدا « ملحق الصلة » الفلسفة قبل علم اللغة » وبول دومان « السيمائيات والبلاغة» وميشيل فوكو « ماالمؤلف ؟ » وادوارد سعيد « النص والعالم ـ بفتح اللام ـ والناقد »

ورينيه جيرارد «الأسطورة والطقس في شكسبير» ويوجينو دوناتو «أتون المتحف : ملاحظات نحو قراءة سياقية لـ « Bouvard and Pécuchet » ولويس مارين : « حول تفسير اللغة العادية » وميشيل سيرز « علم جبر الأدب ـ لعبة الذئب » وجيليس ديلوز « الفصام واللغة » السطح والعمق في لويس كارول وأنتونين آرتور ، ونيل هيرتز « فرويد والرمّال » (بتشديد الميم) وجوزيف رديل « بعثرة الصورة، مشروع فن الشعر الأمريكي ، وجيرارد جينيه «فاليري وفن شعر اللغة » ويوجين فانس « رولان وفن شعر الذاكرة» وميشيل رفاتر« توليد نص « Lautréamont » .

هذا وقد ألحق محرر الكتاب بالمقالات خاتمة تشير الى مباحث أخرى ، وثبتاً مفيدا جداً بالمساهمين في المختارات من النقاد ، يضم كل مدخل فيه تعريفاً بالناقد واشارة الى أهمية أعماله ومكانتها بالنسبة الى غيرها ، ثم حديثاً موجزا عن منهاجه وأبرز كتبه ، وقائمة بمؤلفاته ، وذكرا لأفضل ما كتب عنه من مقالات أو كتب أو ما أجري معه من مقابلات، مع اقتراحات للمبتدئين بدراسة هذا الناقد.

كما وضمن كتابه بيبلوغرافيا ممتازة للموضوعات التالية المتصلة بنظرية وفلسفة النقد المعاصر :

- **البنيوية**
- **ما بعد البنيوية**
- **النقد الأدبي**
- **الفلسفة**
- **التحليل النفسي**
- **الأنتروبولوجيا**
- **اللغويات والسيميائيات**

اضافة الى بعض الموضوعات ذات الصلة ، وثبت بالدوريات الضرورية في دراسة النقد المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص .

ولما كان من المتعذر التوقف عند مقالات الكتاب جميعها ومناقشتها واحدة واحدة وهو أمر يجده المرء في المدخل الممتاز الذي كتبه جوزي هراري ، فان حسب القارىء أن يشير الى أنه يخرج من قراءة هذه الدراسات بانطباع واضح بأنها مقالات أصيلة . والحقيقة أن جميعها هامة وتسعاً منها تنشر للمرة الأولى ، أما المقالات الأخرى فقد ترجمها المحرر عن الفرنسية كما ذكرت . وهي في مجموعها تشكل اضافة ذات شأن للنقد الأدبي المعاصر .

★ ★ ★

وأخيرا يشير جوزي هراري في نهاية مدخله الى أن « **النقد استراتيجي كله** » ثم يسأل :

« كيف ينبغي للناقد أن يباشر المعرفة ؟ »

ويقول انني أعرف جواباً واحدا فقط لهذا السؤال هو ، (**استراتيجياً**) ، ان قوة النقد وانتاجه، أرباحه وخسائره ، تقدمه أو حفره للخنادق يكتب بهذا المصطلح : **استراتيجية** ، مذكرا ايانا بتعريفه القديم ـ الأثري : (فعل دموي عنيف) ، لقد غدا المنهج في لعبة المعرفة استراتيجية ، الفاعل الدموي العنيف **والذي (يعدم) به النقد العمل ، ومن خلال اعدامه هذا له وللمفارقة ـ يمجده »(٤)**

قـد يحلو للمرء أن يفسر نشر كتـاب « استراتيجيات نصيَّة ... » على أنه اعلان حرب شعواء على الأدب بمفهومـه السائد ، وعلى النقد كفعالية تابعة . وقد يرى فيـه مجرد تقليعة عابرة تزول فيما بعد ، ولكنـه لن يراوده الشك في أن هـذا الكتاب سيثير نقاشات حادة ، ومعارك نقدية عنيفة ، لأنـه سيطلق القطة بين الحمائم وما دام النقـد تحركاً استراتيجيا وفعلا دمويا عنيفا ، فلتأذن ساحة الثمانينات بسقوط الكثير مـن شهداء النضال النقدي بحثاً عن المعرفة .. وما دام كل شيء قد غدا أدبا ، أو نصاً ، أو كتابة فلن ننتظر طويلا حتى ننعي الأدب كأول شهيـد في هذه المعركة .

حزيران ١٩٨٠

هـوامش :

★ المقالة هي الثالثة في سلسلة المقالات الموجزة التي يكتبهاصاحب هـذه السطور بغرض تعريف القارىء العربي بآخر تطورات النقد في الغرب ، وانظر :

- عبد النبي اصطيف ـ « لهجات جديدة والبنيوية والسيمائيات : سلسلة جديدة وبداية واعدة » **المؤلف الأدبي** ، **العدد** ١٠٠ ، آب ١٩٧٩ ، ص ص ١٣٩ ـ ١٤٢ .

ـ قراءات غير متأنية في النقد المعاصر ـ النظرية الماركسيةفي الفن ، **المعرفة** ، السنة التاسعة عشرة ، العدد ٢١٨ ، نيسان ١٩٨٠ ، ص ص ٢٣٣ ـ ٢٤٠ .

١ ـ David Robey (Editor), **Structuralism : An Introduction,** Oxford Univesity Press, 1973.

٢ ـ انظر مراجعة بيتركوس Peter Caws في

Comparative Literature, Vol. XXIX, Fall 1977, No. 4, PP. 351-3.

٣ ـ Edward W. Said (Editor)

Literature and Society, The John Hopkins University Press, 1980, P. vii.

٤ ـ Josué V. Harari (Editor),

Textual Strategies : Perspectives in Post-Structuralist Criticism, Cornell University Press 1979, & Methuen & Co. Ltd., 1980, P. 72.